اكتبوا للأطفال

للأديب محمد سعيد كيلاني

الشبان عندنا منصرفون عن كتب الأدب ، وفيها زاهدون بل إن طلبة الجامعة ينظرون شزراً إلى قسم اللغة العربية ، ويركبونه — غفر الله لهم — بالدعابة والسخرية .

ولا غرابة في ذلك فإننا لم ننشئهم تنشئة تطبعهم على احترام لغتنا القومية ، وحب هذا التراث القيم من نظم ونثر . أجل ! لقد أهملنا تغذية عقول أطفالنا إهمالا شنيعاً في حين أن الأمم الأوربية اهتمت بهذا النوع من التأليف وأنفقت في سبيل ذلك أموالا طائلة .

١ — فرنسا :

وكانت فرنسا أسبق هذه الأمم إلى إخراج كتب للأطفال . ففي القرن السابع عشر جلس على عرش تلك البلاد الملك العظيم لويس الرابع عشر .

وفي عصره ظهر عدد كبير من الكتاب والشعراء ، وألفت مسرحيات رائعة ، ونهض غير واحد من الكتاب بالتأليف للأطفال ، ونخص بالذكر منهم « بيرو » الشاعر المعروف والعضو بالأكاديمية الفرنسية ، فقد أخرج بعض القصص بأسلوب سهل وعبارة جذابة ، بيد أنه استنكف أن ينسبها إلى نفسه فنحلها ابنه . ثم أخرج مجموعة « أقاصيص وحكايات الزمان الماضي » باسمه هو لا باسم ابنه كما فعل من قبل .

ومضى بعد وفاة « بيرو » زمن طويل لم يعن فيه أحد بإخراج شيء من أدب الأطفال حتى جاء القرن الثامن عشر فظهرت « لبرنس دي بومون » وكانت تزاول تعليم الأطفال في فرنسا فكتبت عدداً عظيما من القصص ، ولعل من أهمها قصة « مخزن الأطفال » ولكنها لم ترزق خيالا واسعاً ولا أسلوبا قويا ، فلا عجب أن اندثرت حكاياتها ولم يبق منها شيء يذكر .

وفي ذلك القرن ظهر « جان جاك روسو » ونشر آراءه في تعليم الأطفال وتربيتهم فآمن بها كثيرون في فرنسا وغيرها من البلدان . فقامت « مدام دي جنلس » (١٧٤٦ — ١٨٣٠) بتأليف كتب كثيرة للأطفال . وكانت تسير في تعليمهم على مبادىء «روسو» . ولم تعن بتربية الخيال عندهم ولكنها حرصت حرصاً شديداً على سلامة أخلاقهم .

وظهر بين عامي (١٧٤٧ ١٧٩١) أديب كبير منح الأطفال قسطا كبيرا من عنايته فأنشأ لهم صحيفة خاصة بهم أطلق عليها « صديق الأطفال » وقد عرف هو نفسه بهذا اللقب . وامتاز بأسلوب في منتهى السهولة واللين . ولم يكتف بما في لغة بلاده بل نقل كثيراً مما ورد في لغات الأمم الأخرى . وبهذا استطاع أن يسد فراغا كبيراً ، وأن يشبع رغبة الصغار في القراءة

ولم تشرق شمس القرن التاسع عشر حتى كثر عدد الكتاب الذين زاولوا هذا النوع من التأليف .

وفي القرن العشرين بلغ عدد ما يطبع سنويا من قصص الأطفال بضعة ملايين ، كما أن الصحف الخاصة بهم كثرت وانتشرت في كل مكان .

٢ — في انجلترا :

ويغلب على الظن أن العناية بكتب الأطفال في انجلترا بدأت بعد ظهورها بفرنسا . فأنشأ « نيوبرى » مكتبة خاصة للأطفال حوت كثيراً من الكتب التي تستهوي أفئدتهم ، ومن بينها قصص ألفت عن خرافات العصور الوسطى . ولما سرت تعاليم « روسو » و « لوك » وغيرهما من المفكرين إلى بلاد الإنجليز تأثر بها كتابهم إلى أبعد حد . ولا شك في أن « توماس داي » كان من أعظم كتاب الإنجليز تأثرا بتعاليم « جان جاك روسو » وقد ألف للأطفال قصة دعاها «ستانفورد ومرتون» تدور حول غلام سيء الأخلاق والتربية يدعى « توماس مرتون » وهو من أب انجليزي هاجر إلى الهند وأثرى ثراء عظيما . ولما رجع إلى بلاده نشأت صداقة بين ابنه هذا وبين ابن أحد جيرانه وهو « هاري ستانفورد » وكان حسن الأخلاق طيب التربية بفضل تعاليم قس القرية « المستر بارلو » ولما فطن والد « توماس » إلى

حقيقة الأمر ناط بهذا القس تعليم ابنه وتهذيبه . فنتج عن هذا أن أصبح الصبي « توماس » صالحا لا عوج فى أخلاقه .

وظهر بعد « توماس داى » كتاب كثيرون منهم «دى فو» مؤلف قصة « روبنصن كروزو » التى نالت شهرة واسعة ونقلت إلى جميع لغات العالم وقام فى كثير من البلاد الأوربية من قلدها ونسج على منوالها .

ولد « دى فو » سنة ١٦٦٠؛ وتوفى سنة ١٧٣١ واشتغل بالتجارة ولكنه أصيب بالفشل . واشتغل بغير التجارة فصادفه الإخفاق التام . وكان مشغوفا بالسياسة فأصدر فى عام ١٧٠٣ نشرة أغضبت ملك الإنجليز فأمر بإلقاء القبض عليه ومحاكمته . وأخيراً اضطر إلى مغادرة لندن والالتجاء إلى الريف . وهناك كان يقضى وقته فى الكتابة والتأليف . وفى سنة ١٧١٩ أخرج هذه القصة الشهيرة .

ثم ظهرت قصة رائعة أخرى وهى « أسفار جوليفر » لمؤلفها « سويفت » وكان هذا الكاتب فقيراً جداً . وحاول أن يشتغل بالسياسة ولكنه لم يفلح فاضطر إلى الرجوع إلى موطنه الأول ارلندا وفى سنة ١٧٢٩ أخرج هذه القصة فى أسلوب مشرق الديباجة .

ثم تتابعت قصص الأطفال فى انجلترا . ومن أشهرها « أليس فى بلاد العجائب » لمؤلفها « لويس كارول » (١٨٦٥) و « بيتربان » (٢٦ ديسمبر ١٩٠٤) وغيرهما مما لا يتسع المجال لذكره . وظهرت صحف يخطها الحد للأطفال دون سواهم . وقد ساهم فى تحريرها الأطفال من الأمراء والنبلاء .

٣ — فى الأمم الأخرى :

وقد تسابقت الأمم الغربية الأخرى فى هذا المضمار وقطعت فيه شوطا بعيدا . فأنشأت أمريكا مكاتب عامة للأطفال ووكلت إدارتها إلى فريق منهم . وتطبع فى أمريكا ملايين القصص فى كل عام، وتصدر مئات الصحف التى يشرف عليها الأطفال وتديجها أقلامهم .

واهتمت فنلندة وغيرها من أمم شمال أوربا بأدب الأطفال كل اهتمام . وامتازت قصصهم بخيال خصب، ترى عليها مسحة من الهزل والطرافة ، ولوناً من الحزن يقربها إلى النفس . وممن برع من كتاب أهل الشمال فى هذا الباب الأديب الفنلندى « اندرسن» الذى ولد عام ١٨٠٥ وتوفى عام ١٨٧٥ . ومن خير كتبه التى أخرجها للأطفال قصة « ملكة الثلج »

ولم يقصر أهل الجنوب فى هذا الميدان ، بل أعطوه قسطاً كبيراً من عنايتهم . وقد كان لقصص الأطفال أكبر تأثير فى العمل على وحدة كل من إيطاليا وألمانيا . وامتازت قصص أهل الجنوب بالدرس والتحليل والبحث والتمحيص ، وتحكيم المنطق فى كثير من الأمور ، فلم يكن للخيال عندهم نصيب مذكور .

٤ — فى الشرق :

أما فى الشرق فلم يعن أحد بالاتجاه فى هذه الناحية وذلك لتفشى الأمية وعدم العناية بتثقيف النشء . وبقيت هذه الحال حتى عام ١٩٢٨ إذ قام فى مصر الأديب المعروف الأستاذ كامل كيلانى فأوقف مجهوده ووقته لخدمة الأطفال فأخرج فى ذلك العام قصة « جوليفر » فى أسلوب سهل وضبطها بالشكل وحلاها بكثير من الصور فصادفت رواجا كبيراً شجعه على نقل غيرها من روائع الغرب . ثم اتجه هذا الأديب إلى ما ورد فى اللغة العربية من نفائس القصص فبسطها وحذف منها ما لا يتفق مع عقليات الأطفال وأذواقهم فبدت شائقة جذابة ، وانتشرت فى أنحاء الشرق العربى كما ترجمت إلى جميع اللغات الشرقية وبعض اللغات الأوربية وعلى هذا يمكننا أن نقول إن الأستاذ كامل كيلانى قد سد فراغا كبيراً كان من الضرورى أن يُسد ، ووضع أساسا صالحا لأن نشيد فوقه بناء لا يتطرق إليه الخلل .

فما لا شك فيه أن أدباءنا الذين حصروا أنفسهم فى الأدب العالى قد شيدوا الجدران والسقف قبل أن يضعوا الأساس . وهذا هو السر فى إعراض شبابنا عن قراءة كتب الأدب وانصرافهم إلى الروايات التافهة الساقطة التى تنقل عن الغرب .

محمد سيد كيلانى